



## المقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، والذي أخرج المرعى، فجعله غثاء أحوى، أحمده حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، فهو أهل لأن يحمد، فما أعظم منه وفضله علينا، فلك اللهم الحمد حمداً أستلهم به رضاك، وأستمد به العون منك في الاستقامة على طاعتك والسير على مرضاتك، فأسألك اللهم أن تلهمني رشدي وأن تعيذني من شر نفسي ونزغات الشيطان، وأن تُقَوِّم ما فسد من حالي، وتصلح لي ما أعطيتني، ثم أما بعد:

فهذا مكتوب في الاستقامة وسميته بـ «الاستقامة في القرآن الكريم».

(١) الأستاذ المساعد بكلية القرآن الكريم الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وقد حدا بي للكتابة فيه أمران:

**الأول: أهميته،** فإن الدخول في هذا الدين قد يهون، ويسهل على العبد فينطق بالشهادتين، ويقر بهما لكن ماذا بعد ذلك من الاستقامة على معناهما والمحافظة على تعاليم هذا الدين وتكاليفه ومراعاة تحصيل الكمال في ذلك؟ إن الإتيان بالأفعال والأقوال على أكمل صورها وهيئاتها أمر يشق ويصعب على الكثير من الناس، خصوصاً ونحن نعيش أزماناً متأخرة، فتح على الناس فيها من الدنيا والمغريات والشهوات ما الله به عليم، مما كان له عظيم الأثر في صرف الكثير من المسلمين عن الاستقامة على دينهم، فأصبحت ترى إسلام بعضهم في هويته فقط، وأما هوايته وما شغف به قلبه وما تقتطفه جوارحه، وتلبس به صباح مساء فليس من الإسلام في شيء، فأين مثل هذا من الاستقامة التي تستدعي الدوام والثبات على تعاليم الدين، حتى الممات، ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

**ثانياً: أن الاستقامة عبادة قلبية لها عظيم الأثر على القلب واستقامته،** وهو أمير الجوارح وقائدها، به صلاحها وفسادها، وباستقامة القلب يجني العبد ثمرة عظيمة ولذة بالغة وسعادة كبيرة، لا توازيها لذة من لذات البدن، التي يركض وراءها الكثير من عالم اليوم، فالسعادة سعادة الروح والقلب، ولا تكون إلا في طاعة الله والاستقامة على أمره.

وإن البون لشاسع بين من يسعى وراء لذة البدن ومن يسعى وراء لذة الروح، فالأول يركض وراء سراب لا يدركه، وغاية لا يحصلها، ومهما حصل من تلك اللذات فإنها لا تكبح جماح النفس، فلا يزال يركض ويلهث حتى ربما آل به الأمر إلى إزهاق روحه، لأنه لم يحقق لها مناهها، ولم يصل إلى منتهاها، وأما الثاني الذي يسعى وراء لذة الروح فإنه لن يجدها إلا في طاعة الله، وكلما استقام على تلك الطاعة كلما ازدادت تلك اللذة وزاد انشراح الصدر، واتسع له الأفق، وعظمت عنده المدارك حتى يبصر الأشياء على حقائقها، ويتبين له منها النافع والضار بل لا يزال يترقى في



لذائد النعيم في هذه الدنيا فيرضى ربه ويسعد نفسه وروحه ويحافظ على صحته وبدنه وقواه فيحفظها الله عليه، حتى يصل إلى النعيم الأكبر في الآخرة ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

## خطة البحث:

وقد سرت في هذا البحث على الخطة الآتية:

جعلته في مقدمة وستة فصول وخاتمة.

المقدمة: في أهمية الموضوع وسبب اختياره وخبطه ومنهج البحث فيه.

الفصل الأول: في معنى الاستقامة لغةً واصطلاحاً ومعناها في القرآن الكريم.

الفصل الثاني: أهمية الاستقامة.

الفصل الثالث: متعلقات الاستقامة.

الفصل الرابع: أسباب تحصيل الاستقامة.

الفصل الخامس: درجات الاستقامة.

الفصل السادس: ثمار الاستقامة.

## منهج البحث:

حاولت في هذا البحث تتبع لفظ الاستقامة في القرآن، ومادته التي اشتق منها، «قوم» حيثما وردت، لمعرفة دلالتها ودعانيها وما يترتب على ذلك من ثمار وأسباب لتحصيلها.

ولم ألتفت إلى بقية الألفاظ التي قد تكون في معناها ومدلولها قريبة

من الاستقامة، كما أنني لم أهتم ببيان معنى الاستقامة الإجمالي الذي يوازي الصلاح والتقوى ونحو ذلك من العبارات بل جعلت الجهد منصباً على اللفظ ودلالته.

والله المستعان وعليه التكلان، وما كان في هذا البحث من صواب فبمحض توفيق الله وتسديده وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، وأملّي في كل قارئ ومطلع على هذا البحث أن يسدد ما فيه من خلل، ويرشدني إليه على العنوان التالي:

جوال: ٠٥٠٥٣٠٨٧٣٧ - Fayz-alturjume@hotmail.com

وله مني خالص الدعاء بأن يجزل الله له المثوبة، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين.





## الفصل الأول

### في معنى الاستقامة لغة واصطلاحاً، ومعناها في القرآن الكريم

#### الاستقامة لغة:

الاعتدال، يقال: استقام له الأمر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيَّ﴾ [فصلت: ٦] أي: في التوجه إليه دون الآلهة. وقام الشيء واستقام: اعتدل واستوى، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠] معنى قوله استقاموا: عملوا بطاعته ولزموا سنة نبيه ﷺ، والقيم الاستقامة، وأقامت الشيء وقومته فقام، بمعنى استقام فهو مستقيم، والقوام العدل، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]؛ قال الزجاج: معناه للحالة التي هي أقوم الحالات وهي توحيد الله وشهادة أن لا إله الله والإيمان برسله والعمل بطاعته وأقام الشيء أدامه ومنه وقيمون الصلاة<sup>(١)</sup>.

#### واصطلاحاً:

قال ابن رجب: الاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم وهو الدين القيم ومن غير تعريض عنه يمنة ولا يسرة ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة وترك المنهيات كلها كذلك فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: مادة قوم في لسان العرب (١٢/٤٩٩، ٤٩٨)، والقاموس المحيط ص (١٤٨٧)، ومختار الصحاح ص (٤٠٧، ٤٠٨).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (١/٥١٠).

وقال الجرجاني: الاستقامة هي الوفاء بالعهد كلها وملازمة الصراط المستقيم برعاية حد التوسط في كل الأمور من الطعام والشراب واللباس وفي كل أمر ديني ودنيوي فذلكم هو الصراط المستقيم كالصراط المستقيم في الآخرة<sup>(١)</sup>.

وقال ابن القيم: كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد، والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال والنيات.

والاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله وعلى أمر الله.

قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة. وربك يطالبك بالاستقامة.

وقال أيضاً: هي روح تحيا بها الأحوال، كما تربو للعامة عليها الأعمال، وهي برزخ بين وهاد التفرق وروابي الجمع. شبه الاستقامة للحال بمنزلة الروح للبدن، فكما أن البدن إذا خلا عن الروح فهو ميت، فكذلك الحال إذا خلا عند الاستقامة فهو فاسد.

أما كونها برزخاً بين وهاد التفرق وروابي الجمع، فالبرزخ هو الحاجز بين شيئين متغايرين والوهاد الأمكنة المنخفضة من الأرض واستعارها للتفرق. لأنها تحجب من يكون فيها عن مطالعة ما يراه من هو على الروابي ولأن حال صاحب الوهاد أنزل وأدنى من حال صاحب الروابي.

وشبه حال صاحب الجمع بحال من على الروابي لعلوه ولأن الروابي تكشف لمن عليها القريب والبعيد، وصاحب الجمع تكشف له الحقائق المحجوبة عن صاحب التفرقة، إذا عرف هذا فمعنى كونها برزخاً أن السالك

(١) انظر: التعريفات للجرجاني ص(٨).



يكون في أول سلوكه في أودية التفرقة سائراً إلى روابي الجمع فيستقيم في طريق سيره غاية الاستقامة ليصل باستقامته إلى روابي الجمع فاستقامته برزخ بين تلك التفرقة التي كان فيها وبين الجمع الذي يؤمه ويقصده وهذا بمنزلة تفرقة المقيم في البلد في أنواع التصرفات فإذا عزم على السفر وخرج وفارق البلد واستمر على السير: كان طريق سفره برزخاً بين البلد الذي كان فيه والبلد الذي يقصده ويؤمه<sup>(١)</sup>.

### معنى الاستقامة في القرآن الكريم:

من خلال تعريف الاستقامة في لغة العرب يتضح لنا أن معناها يدور حول الثبوت على الحق ولزومه والسير عليه وطلب معرفة كل ما يكمله ويبصر به، يقال: أقام بالمكان إذا ثبت فيه وقال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَقُيِّمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، أي: داوموا وأثبتوا عليها وحافظوا على ما من شأنه أن يكملها ويجعلها في أحسن قوام فهو أمر بالثبات عليها يستلزم سائر مكملاتها.

وتأتي الاستقامة أحياناً بمعناها الإجمالي الذي هو قريب من معنى التقوى والهداية والصلاح.

ولا شك أن الاستقامة تعني لزوم الطريق المستقيم الموصل إلى رضوان الله حتى الممات على حد قول الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَقَّ يَأْتِيكَ﴾ [الحجر: ٩٩]، وعند الطبري وأبي يعلى والترمذي والنسائي من حديث أنس بن مالك قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣]، وقال: «قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فقد

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١١٠، ١١١).

استقام عليها<sup>(١)</sup>.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف: ١٣]، وقد اختلفت عبارات السلف في معنى قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ ففسرها أبو بكر الصديق رضي الله عنه بقوله: هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً يعني: استقاموا على التوحيد.

وهو يعني بذلك التوحيد الخالص لأنه كلما كمل توحيد العبد ابتعد عن الذنوب والمعاصي إذ هي قدح في كمال التوحيد لأنها إجابة إلى داعي الهوى وإيثار محاب النفس وشهواتها على محاب الرب سبحانه.

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ وروغان الثعالب.

وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: استقاموا: أخلصوا العمل لله. وقال علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما: استقاموا على أداء الفرائض. وقال الحسن: استقاموا على أمر الله فعملوا لطاعته واجتنبوا معصيته. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: استقاموا على محبته وعبوديته فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة.

وقال ابن جرير: استقاموا على توحيد الله ولم يخلطوا بتوحيد الله بشرك غيره به و انتهوا إلى طاعته فيما أمر ونهى<sup>(٢)</sup>.

وقال الطاهر ابن عاشور: ومعنى ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أنهم صدعوا بذلك ولم يخشوا أحداً بإعلانهم التوحيد، فقولهم تصريح بما في اعتقادهم لأن

(١) انظر: تفسير الطبري (٤٢٢/٢٠)، ومسند أبي يعلى (٢١٣/٦) رقم (٣٤٩٨)، وسنن الترمذي (٣٥١/٥) رقم (٣٢٥٠)، وتفسير السائي (٢٦١/٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤٢٤/٢٠ - ٤٢٥)، وتفسير ابن كثير (٣١٠٣/٧ - ٣١٠٤)، ومدارج السالكين (١٠٨/٢، ١٠٩٩)، وجامع العلوم والحكم ص (١٩٢).





المراد بهم قالوا ذلك عن اعتقاد، فإن الأصل في الكلام الصدق وهو مطابقة الخبر الواقع وما في الوجود الخارجي.

وقوله: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (يفيد الحصر بتعريف المسند إليه والمسند)، أي: لا رب لنا إلا الله، وذلك جامع لأصل الاعتقاد الحق لأن الإقرار بالتوحيد يزيل المانع من تصديق الرسول ﷺ فيما جاء به إذ لم يصدّ المشركين عن الإيمان بما جاء به النبي ﷺ إلا أنه أمرهم بنبذ عبادة غير الله، ولأن التكذيب بالبعث تلقوه من دعاة الشرك.

والاستقامة حقيقتها: عدم الاعوجاج والميل، والسين والتاء فيها للمبالغة في التقويم، فحقيقة استقام: استقل غير مائل ولا منح. وتطلق الاستقامة بوجه الاستعارة على ما يجمع معنى حسن العمل والسيرة على الحق والصدق قال تعالى: ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، وقال: ﴿فَأَسْتَقِيمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾ [هود: ١١٢]، ويقال: استقامت البلاد للملك، أي: أطاعت، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧]. ﴿اسْتَقَمُوا﴾ هنا يشمل معنى الوفاء بما كلفوا به وأول ما يشمل من ذلك أن يثبتوا على أصل التوحيد، أي: لا يغيروا ولا يرجعوا عنه... وتعريب المسند إليه بالموصولية دون أن يقال: إن المؤمنين ونحوه لما في الصلة من الإيمان إلى أنها سبب ثبوت المسند للمسند إليه فيفيد أن تنزل الملائكة عليهم بتلك الكرامة مسبب على قولهم: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ واستقامتهم فإن الاعتقاد الحق والإقبال على العمل الصالح هما سبب الفوز.

و(ثم) للتراخي الرتبي لأن الاستقامة زائدة في المرتبة على الإقرار بالتوحيد لأنها تشمله وتشمل الثبات عليه والعمل بما يستدعيه، ولأن الاستقامة دليل على أن قولهم: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ كان قولاً منبعثاً عن اعتقاد الضمير والمعرفة الحقيقية.

وجمع قوله: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أضلّي الكمال الإسلامي، فقوله: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ مشير إلى الكمال النفساني وهو معرفة الحق

للاهتمام به، ومعرفة الخير لأجل العمل به، فالكمال علم يقيني وعمل صالح، فمعرفة الله بالإلهية هي أساس العلم اليقيني. وأشار قوله: ﴿اسْتَغْنُوا﴾ إلى أساس الأعمال الصالحة وهو الاستقامة على الحق، أي: أن يكون وسطاً غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] على أن كمال الاعتقاد راجع إلى الاستقامة، فلا اعتقاد الحق أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل، ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه والتمثيل بل يمشي على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل، ويستمر كذلك فاصلاً بين الجبري والقدري، وبين الرجاء والقنوط، وفي الأعمال بين الغلو والتفريط. اهـ<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَغْنُوا﴾ هي في معناها مثل كلمة التوحيد فقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ تقابل لا إله إلا الله ﴿ثُمَّ اسْتَغْنُوا﴾ تقابل محمد رسول الله. إذ لا تصح الاستقامة إلا بمعرفة نبينا محمد ﷺ وهديه والثبات على ذلك. وهي أيضاً مثل قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ يقابل ﴿قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ يقابل ﴿ثُمَّ اسْتَغْنُوا﴾ بل هذه أعم لأن الاستغفار جزء من الاستقامة.

وقد أمر الله تعالى بإقامة الدين كله فقال جل شأنه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، وأمر بإقامة الصلاة في غير موضع من كتابه كما أمر بالاستقامة على التوحيد.

(١) التحرير والتنوير (٢٨٢/٢٤ - ٢٨٤) بتصرف يسير.



## الفصل الثاني

### أهمية الاستقامة

إن سعادة العبد في حياته الدنيا والآخرة مرتبطة بتزكّيته لنفسه ولا تكون تلك التزكية إلا بتقويم النفس على دين الله وشرعه. كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۚ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وكان حقاً على اللبيب الحذق أن يحرص كل الحرص على الاستقامة على المنهج الصحيح الذي يسعد به في دنياه وأخراه.

وكلما ترقى الإنسان في درجات الكمال الإنساني كلما تحقق له من سعادة الدنيا والآخرة النصيب الأكبر والحظ الأوفر. ومن شأن الاستقامة أن ترقى بصاحبها إلى درجات الكمال وتحفظ عقله من أن يتطرق إليه الفساد وتصون نفسه من التردّي في حمأة الرذيلة.

وإذا سيطرت الرغبة في الاستقامة على الأفراد والجماعات وسادت بينهم حسنة أحوالهم واستقامت أمورهم وعمهم الأمن والسلام وبسط الله عليهم من بركات السماء والأرض.

وقد اهتم الإسلام بتقويم الإنسان والرقى به في درجات الكمال فما من خلق فاضل محمود إلا وأمر به وما من خلق سيئ مذموم إلا وحذر منه.

ولهذا أتت الأوامر بالاستقامة في مواطن كثيرة من الكتاب والسنة أحياناً موجهة لقائد الأمة وإمامها ونبيها ﷺ ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، وأحياناً موجهة للأمة ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، وأحياناً بالحث على الاستقامة ببيان الثمار المترتبة عليها في الدنيا والآخرة، وأحياناً ببيان أنها مئة وفضل يصطفي الله له من يشاء من عباده المؤمنين ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]، وأحياناً ببيان أنها هي

الطريق الذي يدعو إليه خاتم أنبياء رسله محمد ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وأحياناً بالأمر بلزوم الاستقامة حتى الموت ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

بل جعل الله أحب الأعمال الصالحة إليه ما استقام عليه صاحبه وداوم عليه كما في الحديث الصحيح: «وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل»<sup>(١)</sup>.

وكان أحب الدين إلى نبينا ﷺ ما داوم صاحبه عليه<sup>(٢)</sup>.

وتبرز أهمية الاستقامة من خلال الأمور التالية:

### أولاً: الأمر بالاستقامة:

لعظم أمر الاستقامة وأهميته أمر الله بها عبادة المؤمنين في غير ما آية من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢] فأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين بالاستقامة على أمر الله ودينه وشرعه، والثبات على ذلك، ونهاهم عن ضد الاستقامة وهو الطغيان وتجاوز أمر الله إلى ما نهي عنه، وأعلمهم أنه بصير بأعمال العباد خيرها وشرها لا يخفى عليه من ذلك شيء

(١) انظر: صحيح البخاري مع الفتح - كتاب اللباس - باب الجلوس على الحصير ونحوه (٣١٤/١٠) رقم (٥٨٦١).

(٢) أخرجه النسائي في سننه - كتاب الإيمان وشرائعه - باب أحب الدين إلى الله (١٢٣/٨) رقم (٥٠٣٥) من حديث أم المؤمنين عائشة. وهو في الصحيحين بلفظ: أن مسروقاً سأل عائشة رضي الله عنها أي العمل كان أحب إلى النبي ﷺ؟ قالت: «الدائم». انظر: صحيح البخاري مع الفتح كتاب التهجد باب من نام عند السحر (١٦/٣) رقم (١١٣٢)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب صلاة الليل... (٥١١/١) رقم (١٣١).



وسيجازيهم على ذلك<sup>(١)</sup>.

بل أمر الله بها حتى المشركين فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] فأمر الله نبيه بأن يقول للمشركين المكذبين المعرضين عن قبول ما جاء به إنما أنا بشر مثلكم من بني آدم، ومثلكم في الجنس والصورة والهيئة، لست بملك. يوحى الله إلي أنه لا تصلح العبادة إلا لمعبود واحد وهو الله سبحانه ﴿فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: بالتوحيد والطاعة والإخلاص، ووجهوا إليه وجوهكم بالرغبة والعبادة دون الآلهة الأخرى، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: سلوه العفو عما سلف من الذنوب، وعن التقصير الذي يحصل في الاستقامة فتجبروه بهذا الاستغفار لأن الاستقامة حق الاستقامة غير ممكنة كما قال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [الشورى: ١٥] أي: إلى ذلك الدين الذي شرع لكم ووصى به جميع المرسلين قبلك وخص بالذكر منهم أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار المتبعة إلى ذلك الدين فادع الناس إليه، واستقم على العمل به أنت ومن اتبعك، ولا تزغ عنه واثبت عليه كما أمرك ربك، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أهواء المشركين فيما افتروه واختلقوه من عبادة الأوثان الباطلة، ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي: صدقت بما أنزل الله من الكتب المنزلة لا أكذب بشيء من ذلك. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: في الحكم كما أمرني ربي ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/٥٩٨، ٥٩٩)، ومدارج السالكين (١٠٨/٢)، وتفسير ابن كثير (١٨١٤/٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣٧٨/٢٠)، ومدارج السالكين (٨/٢ - ١٠٩). والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٧/٥)، وابن ماجه في سننه - كتاب الطهارة وسننها - باب المحافظة على الوضوء (١٠١/١، ١٠٢) رقم (٢٧٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٢٢٤).

أي: هو المعبود الحق لا إله سواه ﴿لَنَّا أَعْلَنَّا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ أي: نحن براء منكم كما قال: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] فلكل ثواب ما اكتسب من العمل ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، قال مجاهد: لا خصومة، وقال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف، قال ابن كثير: وهذا متجه لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة<sup>(١)</sup>.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَالْيَوْمِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع والمآب في ذلك اليوم.

وقال ابن عطية: «وخطب عليه السلام بأمر الاستقامة وقد كان مستقيماً بمعنى دم على استقامتك، وهكذا الشأن في كل مأمور بشيء متلبس به إنما معناه الدوام، وهذه الآية ونحوها كانت نصب عين النبي ﷺ وكانت شديدة الموقع في نفسه، أعني قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِمُ كَمَا أَمَرْتُ﴾ [هود: ١١٢] لأنها جملة تحتها جميع الطاعات، وتكاليف النبوة، وفي هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام: «شيبني هود وأخواتها»، ف قيل له: لم ذلك؟ قال: «لأن فيها ﴿فَأَسْتَفْتِمُ كَمَا أَمَرْتُ﴾»<sup>(٢)</sup>، وهذا الخطاب له ﷺ بحسب قوته في أمر الله تعالى، وقال هو لأئمة بحسب ضعفهم: «استقيموا ولن تحصوا»<sup>(٣)</sup>.

### ثانياً: فضل الاستقامة وثوابها:

إن مما يدفع على الاستقامة وتكبد المشاق في سبيل تحقيقها على أكمل وجه ما يترتب عليها من جزيل الثواب وعظيم الأجر الذي أعده الله لأهلها.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣١٢٠/٧).

(٢) الحديث صحيح من غير قوله: «ف قيل له: لم ذلك...» إلخ. رواه الترمذي في سننه - كتاب التفسير سورة الواقعة (٣٧٥/٥، ٣٧٦) رقم (٣٢٧٩)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٩٥٥).

(٣) تقدم تخريجه قريباً ص (٦١).



ومن يتأمل الثمرة التي يجنيها صاحب الاستقامة يجد أمراً عجباً من الثمار العاجلة والآجلة في الدنيا والآخرة، فتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠] أي: عند الموت وساعة الاحتضار قائلين: ﴿أَلَا تَخَافُوا﴾ فيما أنتم مقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلفتموه وراءكم من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال فإننا نخلفكم فيه بخير ﴿وَابْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير وهذه البشائر كلها مقرونة بالاستقامة على أمر الله إذ خلقنا الله لعبادته والاستقامة عليها حتى الموت كما قال جل شأنه: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي: الموت، كما جاء في حديث البراء أن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمريه، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان<sup>(١)</sup>.

وحكى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنه والسدي أن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث، رواه ابن أبي حاتم. قال ابن كثير: وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً، وهو الواقع.

وقول: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى

(١) لم أجده بهذا اللفظ وأصله صحيح من حديث البراء رضي الله عنه رواه الإمام أحمد في المسند (٢٨٧/٤، ٢٨٨)، وأبو داود في سننه كتاب السنة باب في المسألة في القبر (٢٣٨/٤) رقم (٤٧٥١)، والحاكم في المستدرک (٣٧/١ - ٤٠) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في أحكام الجنائز ص (١٩٨ - ٢٠٢) رقم (١٠٥).

جنات النعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهي النفوس، وتقر به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، أي: اخترتم، ﴿تُزَلَّ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ (٣٢) أي: ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف (١).

ومثل هذه الآية في المعنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ [الأحاف: ١٣، ١٤].

وقال سبحانه في آية ثالثة عن مسلمي الجن: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ [الجن: ١٦، ١٧].

وفي معنى هذه الآية قولان:

الأول: أي: لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام والحق والاستقامة واستمروا عليها ﴿لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ أي: كثيراً، أي: لوسعنا عليهم في الرزق وبسطناهم في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنْحِيلَ وَمَا أَنْزَلْ إِلَيْهِمْ مِنْ رَحْمَةٍ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٦) [الأعراف: ٩٦].

وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: نختبرهم ونبتليهم لنرى من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية.

الثاني: أي: لو استقاموا على طريقة الضلالة لأوسعنا عليهم في الرزق

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣١٠٥/٧، ٤١٠٤)





استندراجاً كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ﴿٥٥﴾﴾ شَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧] أي: شاقاً شديداً مؤلماً لا راحة فيه<sup>(١)</sup>.

**ثالثاً: وصف الرب سبحانه وتعالى نفسه بأنه على صراط مستقيم:**

كما قال جل شأنه على لسان هود عليه السلام: ﴿إِنِّي قَوَلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦] فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله وفعله فهو يقول الحق ويفعل العدل فالصراط المستقيم الذي عليه ربنا تبارك وتعالى هو مقتضى التوحيد والعدل قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦]، فهذا مثل ضربه الله لنفسه وللصنم فهو سبحانه الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم والصنم مثل العبد الذي هو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير فكيف يسوونه في العادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد وهو قادر متكلم غني وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله فقلوه صدق ورشد ونصح وهدى وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة هذا أصح الأقوال في الآية وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم فالشرع والقدر والخلق والأمر والثواب والعقاب قائم بالعدل والتوحيد صادر عنهما وهذا هو الصراط المستقيم الذي عليه

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/٣٣٤ - ٣٣٦)، وتفسير ابن كثير (٨/٣٦٣٦ - ٣٦٣٧).

الرب سبحانه وتعالى، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨).

وقوله تعالى: ﴿قَائِمًا﴾ هو كقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ نصب على الحال وفيه وجهان؛ أحدهما: أنه حال من الفاعل في ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ والعامل فيها الفعل والمعنى على هذا شهد الله حال قيامه بالقسط أنه لا إله إلا هو، والثاني: أنه حال من قوله: ﴿هُوَ﴾ والعامل فيها معنى النفي، أي: لا إله إلا هو حال كونه قائماً بالقسط وبين التقديرين فرق ظاهر فإن التقدير الأول يتضمن أن المعنى شهد الله متكلاً بالعدل مخبراً به أمراً به فاعلاً له مجازياً به أنه لا إله إلا هو فإن العدل يكون في القول والفعل والمقسط هو العادل في قوله وفعله فشهد الله قائماً بالعدل قولاً وفعللاً أنه لا إله إلا هو وفي ذلك تحقيق لكون هذه الشهادة شهادة عدل وقسط وهي أعدل شهادة كما أن المشهود به أعدل شيء<sup>(١)</sup>.

#### رابعاً: وصف الله صراطه والطريق الموصل إليه بالاستقامة:

وذلك في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥، ١٢٦) فمن شرح الله مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا آيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ ﴿١٢٦﴾ [الأنعام: ١٢٥، ١٢٦] فمن شرح الله صدره للإسلام بأن يوسع قلبه للتوحيد والإيمان فقد هدي إلى صراط الله المستقيم وهو هذا الدين الذي شرعه الله لنبيه محمد ﷺ بما أوحاه إليه من القرآن فهو طريق ربك ودينه الذي ارتضاه لنفسه وجعله مستقيماً لا عوج فيه فاثبت واستقم عليه بإحلال حلاله وتحريم حرامه فقد بينا الآيات والحجج على حقيقة ذلك وصحته لمن تذكر واعتبر بتلك الآيات<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: التفسير القيم ص (٣١٢، ٣٤٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥٥٣/٩)، وابن كثير ٣ (١٣٦٣/ - ١٣٦٤).



وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ويأتي شرحها قريباً إن شاء الله في الفقرة «ثامناً».

**خامساً: أن الله تعالى وصف بها نبيه وصفيه من خلقه محمداً ﷺ:**

كما قال سبحانه: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣] فيأمر الحق تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ بأن يستمسك بهذا القرآن، والسين والتاء مزيدتان للطلب يقال: استمسكت بالشيء إذا تحرّيت الإمساك به فيأمر الله نبيه ﷺ بالأخذ بالقرآن فإنه الحق وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنان النعيم والخير الدائم المقيم<sup>(١)</sup>.

**سادساً: أن الله تعالى هدى نبيه ﷺ إليها وأمره بدعوة الناس إليها:**

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وهداية الله لنبيه وخليفه محمد ﷺ لا تكون إلا للأفضل والأكمل كما دلت هذه الآية على أن الاستقامة هي ملة خليل الرحمن نبي الله إبراهيم عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فالنبي ﷺ اجتباؤه ربه وهداه إلى الصراط المستقيم وهو يهدي الناس إلى ما هداه الله إليه.

(١) الطبري (٦٠٢/٢٠)، وابن كثير (٣١٤٨/٧)، ومفردات القرآن للراغب مادة مسك ص (٧٦٩).

سابعاً: أنها وصف لما جاء به الخليلان محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ آبَائِهِمْ خَيْرًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١] أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين العادلين بربهم الأوثان والأصنام إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم وهو دين الله الذي بعثني به وهو الحنيفية السمحة المستقيمة ملة إبراهيم عليه السلام الذي لم يكن مشركاً بالله تعالى<sup>(١)</sup>.

وكما أخبر سبحانه عن خليله إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

ثامناً: أوصى الله عباده بها وأضافها إلى ذاته المقدسة وأمره لنبيه بأن يدعو الناس إليها:

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ شَيْئٍ فَيَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال الطبري: أي: هذا الذي وصاكم به ربكم أيها الناس في هاتين الآيتين من قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [١٥١] وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ أَوْفَا كُلِّفَ نَفْسًا إِلَّا وَاعْتَمِدُوا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٢] وأمركم بالوفاء

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤٤/١٠، ٢٤٥)، وابن كثير (١٤٠/٣).



به؛ هو صراطه يعني طريقه ودينه الذي ارتضاه لعباده ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ يعني قوياً لا اعوجاج به عن الحق فاتبعوه واعملوا به واجعلوه لأنفسكم منهجاً تسلكونه ولا تسلكوا طريقاً سواه، ولا تركبوا منهجاً غيره، ولا تبغوا ديناً خلافه من اليهودية والنصرانية والمجوسية وعبادة الأوثان وغير ذلك من الملل فإنها بدع وضلالات ﴿فَنَفَرَقَ بِكُمْ﴾ أي: تتشتت بكم في أنفسكم إن اتبعتم السبل المحدثه التي ليست لله بسبيل ولا طريق ولا أديان، ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يعني عن طريقه ودينه الذي شرعه لكم وارتضاه وهو الإسلام الذي وصى به الأنبياء وأمر به الأمم قبلكم، ﴿ذَلِكَ وَصَّنَكُمْ بِهِ﴾ هذا ما وصاكم به ربكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لتتقوه في أنفسكم فلا تهلكوها، وتحذروا ربكم فيها فلا تسخطوه عليها فيحل بكم نقمته وعذابه<sup>(١)</sup>.

وقال ابن عاشور: «والإشارة إلى الإسلام: أي وأن الإسلام صراطي؛ فالإشارة إلى حاضر في أذهان المخاطبين من أثر تكرر نزول القرآن وسماع أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام، بحيث عرفه الناس وتبينوه، فنزل منزلة المشاهد، فاستعمل فيه اسم الإشارة الموضوع لتعيين ذات بطريق المشاهدة مع الإشارة، ويجوز أن تكون الإشارة إلى جميع التشريعات والمواعظ التي تقدمت في هذه السورة، لأنها صارت كالشيء الحاضر المشاهد، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

والصراط: الطريق الجادة الواسعة، وقد مرّ في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ والمراد الإسلام كما دلّ عليه قوله في آخر السورة: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَهُ ابْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١] لأن المقصود منها تحصيل الصلاح في الدنيا والآخرة فشبهت بالطريق الموصل السائر فيه إلى غرضه ومقصده.

ولما شبه الإسلام بالصراط وجعله كالشيء المشاهد صار كالطريق

(١) الطبري (٩/٦٦٩، ٦٧٠).

الواضحة البينة فادعي أنه مستقيم، أي: لا اعوجاج فيه لأن الطريق المستقيم أيسر سلوكاً على السائر وأسرع وصولاً به.

والياء المضاف إليها (صراط) تعود على الله، كما بينه قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) صِرَاطُ اللَّهِ ﴿الشورى: ٥٢، ٥٣﴾ على إحدى طريقتين في حكاية القول إذا كان في المقول ضمير القائل أو ضمير الأمر بالقول. وقوله: ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) حال من اسم الإشارة، وحسن وقوعه حالاً أن الإشارة بنيت على ادعاء أنه مشاهد، فيقتضي أنه مستحضر في الذهن بمجمل كلياته وما جزبوه منه وعرفوه، وأن ذلك يريهم أنه في حال الاستقامة كأنه أمر محسوس، والسُّبُل: الطرق، ووقوعها هنا في مقابلة الصراط المستقيم يدل على صفة محذوفة، أي: السبل المتفرقة غير المستقيمة، وهي التي يسمونها: بُنيات الطريق، وهي طرق تتشعب من السبيل الجادة ﴿فَنَفَرَقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، أي: فلأنها طرق متفرقة فهي تجعل سالكها متفرقاً عن السبيل الجادة.

وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ (الحج: ٦٧). فأمر الله نبيه بدعوة مخالفين من المشركين بالله في النسك إلى اتباع أمر الله في ذلك وأن يجتنبوا الذبح لغير الله والأكل مما ذبح لغير الله. ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ غير زائغ عن الحق والصواب الذي أمرك به ربك (١).

وقال تعالى: ﴿يَسَّ﴾ (١) وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) [يس: ١ - ٤] قال القرطبي في تفسيره: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤) «أي: دين مستقيم وهو الإسلام. وقال الزجاج: على طريق الأنبياء الذين تقدموك، وقال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣) خبر إن، و﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبر ثان، أي: إنك لمن المرسلين، وإنك على صراط

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/٥٢٥ - ٥٢٩).



مستقيم. وقيل: المعنى لمن المرسلين على استقامة، فيكون قوله: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ من صلة الْمُرْسَلِينَ، أي: إنك لمن المرسلين الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: الصراط الذي أمر الله به <sup>(١)</sup>.

وفي الآية دليل على أن جميع الرسل عليهم السلام على صراط مستقيم.

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَسِمْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٣٣﴾ [الزخرف: ٤٣].

قال الشوكاني رحمه الله: ﴿فَاسْتَسِمْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ أي: من القرآن وإن كذب به مكذب ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ واضح والجملة تعليل لقوله: ﴿فَاسْتَسِمْ﴾ <sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُّونَ ﴿٧٤﴾ [المؤمنون: ٧٣، ٧٤] أي: تدعو هؤلاء المشركين إلى طريق قاصد، وصراط مستقيم، لكنهم عادلون جائرون منحرفون عنه، تقول العرب: نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنه <sup>(٣)</sup>.

تاسعاً: أن الله يجتبي ويصطفى لها خيرته من أنبيائه وخلقه:

كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٢٥﴾ [يونس: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا عَائِثَ مَبْنِيَّةٍ

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/١٦).

(٢) انظر: فتح القدير (٥٣٥/٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٩١/١٧)، وابن كثير (٢٣٤٨/٥).

وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ [النور: ٤٦] إِلَى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الاستقامة على الحق وشرع الله ودينه مكان رفيع شريف إنما يجتبي الله خيرته من خلقه.

عاشراً: أن الاستقامة هي الطريق الذي هدى الله له عباده المؤمنين: كما قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قال الربيع بن أنس في قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ أي: عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف، أقاموا على الإخلاص لله ﷻ وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف، وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة ...

وكان أبو العالية يقول: في هذه الآية المخرج من الشبهات والضلالات والفتن.

وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بعلمه، بما هداهم له. قاله ابن جرير: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من خلقه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: وله الحكم والحجة البالغة<sup>(١)</sup>.

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤] أي: في الدنيا والآخرة - وهذا وعد من الله لا يتخلف - أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥٣٠/٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢٤٠٦/٥).





## الحادي عشر: أنها من أخص صفات الأخيار والصالحين:

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝٨٥ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَثَمَارًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٨٦ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٨٧﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٧].

فنصت هذه الآيات على ثمانية عشر نبياً من أنبياء الله وألحقت بهم جملة من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم الذين ساروا على منهجهم واتبعوا ما جاؤوا به من هدى، فجميع هؤلاء اصطفاهم الله تعالى وهداهم إلى الاستقامة وسلوك الصراط المستقيم، ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَةٌ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقال في الصفات عن موسى وهارون: ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١١٨﴾ [الصفات: ١١٨].

وقال عن خليفه إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝١٢١﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

## الثاني عشر: أنها وصف للقرآن والكتب السماوية المنزلة لهداية البشرية:

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُمُ عِوَجًا ۝١ قِيمًا لِّيُبَذَّرَ بِأَسَا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾ [الكهف: ١، ٢].

قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله: «الْكِتَابُ» أي: القرآن سمي كتاباً لأنه يكتب أو لأنه جامع، لأن الكتاب بمعنى الجمع ولهذا يقال: الكتيبة يعني المجموعة من الخيل والقرآن صالح لهذا وهذا فهو مكتوب وهو أيضاً جامع... و«قِيَمًا» أي: مستقيماً غاية الاستقامة.

ذكر هنا نفي العيب أولاً ثم إثبات الكمال ثانياً وهكذا ينبغي أن تخلي المكان أولاً ثم تضع الكمال ولهذا يقال: «التخلية قبل التحلية»<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ﴾ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ ﴿٣﴾ [البينة: ١ - ٣] أي: فيها مكتوبات قيمة جمع كتاب بمعنى مكتوب كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وفي قراءة الجمهور: «للكتاب» والمعنى أي للمكتوب، أي: كما نطوي الصحيفة على ما كتب فيها.

### الثالث عشر: أنها وصف للدين كله:

في جميع جوانبه وتكاليفه الشرعية فالكل غاية في الاستقامة لما يترتب على ذلك من جلب المصالح ودفع المضار قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْمُ﴾ [التوبة: ٣٦]، ﴿أَمَرَ آلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْمُ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ ﴿٥﴾ [البينة: ٥]<sup>(٢)</sup>.



(١) انظر: تفسير سورة الكهف ص (٨، ٩).

(٢) انظر: تفسير جزء عم لابن عثيمين ص (٢٧٧)، والتيسير في القراءات السبع ص (١٥٥).



## الفصل الثالث

### متعلقات الاستقامة

#### أولاً: في جانب العبادة:

تقدم معنا في فضل الاستقامة أن الله تعالى وصف الأديان السماوية بها وأمرنا بإقامة الدين كله لكن الأصل في ذلك في جانب العبادة ومتعلقه الذي لا يقوم مع فساده أي جانب من جوانب العبادة هو التوحيد وإلا فإن الاستقامة هي الدين كله، ولهذا جاء في الصحيح عند مسلم وغيره من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»<sup>(١)</sup>.

والاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم وهو الدين القيم من غير تعوج عنه يمناً ولا يسرة، ويشمل ذلك الاستقامة على التوحيد وفعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها<sup>(٢)</sup>.

قال ابن رجب وفي قوله: «فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا» [فصلت: ٦] إشارة إلى أنه لا بد من تقصير في الاستقامة المأمور بها فيجبر ذلك الاستغفار والمقتضى للتوبة والرجوع إلى الاستقامة فهو كقول النبي ﷺ لمعاذ: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب جامع أوصاف الإسلام (٦٥/١) رقم (٣٨).

(٢) جامع العلوم والحكم ص(١٩٣).

(٣) جامع العلوم والحكم ص(١٩٣)، والحديث رواه الإمام أحمد في المسند (١٥٣/٥)،

والترمذي في سننه - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في معاشرته الناس (٣١٢/٤)،

رقم (٣١٣) (١٩٨٧)، والدارمي في سننه (٧٩٩/٢) رقم (٢٦٨٨)، وهو في الصحيحة

(٣٦١/٣، ٣٦٢) رقم (١٣٧٣).

فأصل الاستقامة وحقيقتها استقامة القلب على توحيد الله كما تقدم في تفسير أبي بكر رضي الله عنه للآية ﴿إِنَّ الذِّكْرَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠] أي: على توحيد الله ولم يلتفتوا إلى غيره.

قال ابن رجب رحمته الله: ولعل من قال: إن المراد الاستقامة على التوحيد إنما أراد التوحيد الكامل الذي يُحرّم صاحبه على النار، وهو تحقيق معنى لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يُطاع، فلا يُعصى خشية وإجلالاً ومهابة ومحبة ورجاء وتوكلًا ودعاءً، والمعاصي كلها قاذحة في هذا التوحيد؛ لأنها إجابة لداعي الهوى وهو الشيطان، قال الله - سبحانه -: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، قال الحسن وغيره: هو الذي لا يهوى شيئاً إلا ركه، فهذا يُنافي الاستقامة على التوحيد<sup>(١)</sup>.

وفي الحديث عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي قال: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن القيم رحمته الله: والمطلوب من العبد الاستقامة وهي السداد فإن لم يقدر عليها فالمقاربة فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سدّدوا وقاربوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»<sup>(٣)</sup>.

فالسداد هو حقيقة الاستقامة، فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها فأمر بالاستقامة وهي السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال،

(١) جامع العلوم والحكم (٥٠٩/١).

(٢) تقدم تخريجه ص (٦١).

(٣) انظر: صحيح البخاري مع الفتح كتاب المرضى - باب تمنى المريض الموت (١٢٧/١٠) رقم (٥٦٧٣)، وصحيح مسلم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢١٧٠/٤) رقم (٢٨١٦).



وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا يطيقونها فنقلهم إلى المقاربة وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم كالذي يرمي إلى الغرض فإن لم يصبه يقاربه ومع هذا فأخبرهم: أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة فلا يركن أحد إلى عمله ولا يعجب به ولا يرى أن نجاته به بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله. فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات فالاستقامة فيها: وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطالبك بالاستقامة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: - مقررأ وحدانيته وأنه لا شريك له وأن هذا المعتقد هو الصراط المستقيم الذي يجب أن يعتقده الناس ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٢٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٦﴾ [مريم: ٣٤ - ٣٦] أي: ما قص الله على نبيه من خبر عيسى عليه السلام وأنه عبد لله كما قال عن نفسه عليه السلام فيما حكى الله عنه: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي آلِهَةٍ صَبِيًّا﴾ (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ [مريم: ٢٩، ٣٠].

فأول ما تكلم به نبي الله عيسى عليه السلام تنزيه جناب الرب سبحانه من الشرك وتبرئته من الولد وأثبت لنفسه أنه عبد لله أوحى الله إليه وجعله نبياً من الأنبياء، فهذا الذي قصصناه عليك يا محمد من خبر عيسى هو الحق ثم نزه نفسه عما يقول الجاهلون الظالمون المعتدون من الشرك والولد فقال:

(١) مدارج السالكين (١٠٩/٢ - ١١٠).

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ﴾ [مريم: ٣٥] <sup>(١)</sup>.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي: إني وإياكم عبيد لله فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي أوصيكم به من توحيد الله وإفراده بالعبادة وأخبرتكم أن الله أمرني به هذا الطريق المستقيم الذي من سلكه نجا ومن ركبته اهتدى لأنه دين الله الذي أمر به أنبياءه<sup>(٢)</sup>.

ويصح أن يكون المعنى كما قال ابن كثير: أي: ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم وأمرهم بعبادته فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به من عند الله صراط مستقيم أي: قويم من اتبعه رشد وهدى، ومن خالفه ضل وغوى<sup>(٣)</sup>.

وما أكثر الآيات في القرآن الكريم التي تقرر هذا المعنى ألا وهو أن تحقيق توحيد الله، وعبادته هو الاستقامة، ومنها قوله تعالى على لسان عيسى أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٥١) [آل عمران: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأَيِّنْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٣) [آل عمران: ١٣]، وإن الله هو ربِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ [الزخرف: ٦٣، ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُوا صُورَهُ وَمَا تَوَسَّلُوا بِهِ إِلَّا لِلْحِزْبِ الْأَكْثَرِ الْأَعْيُنِ أَعْيُنُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا يَتْلَوْنَ إِلَّا الْكُتُبَ الْحَقِيقََّةَ الَّتِي لَا يَمَسُّهُ الْغَيُّ يَتْلُوهُمْ زَكَاةً يُسْمِعُونَ كَلِمَاتٍ تُبَدِّلُ السُّوءَ بِالِخَيْرِ وَيُبَيِّنُ لِقَاءَ رَبِّهِمْ الْآخِرَ وَمَا يَتْلُو مِنْهُ لِيُنْذِرَ الْغَافِلِينَ﴾ (١٠) [الزخرف: ١٠]، وإن أعوذُني هذا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

وهذا تقرير من الله تعالى لمن أطاع الشيطان وهو العدو المبين وعصى الرحمن الخلاق الرزاق الكريم ولهذا قال: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) أي: عصيان الشيطان وطاعة الرحمن هو الصراط المستقيم لكن ما أكثر الذين يحيدون عنه ويسلكون المسالك المعوجة ولهذا قال

(۱) انظر: تفسير ابن كثير (۵/۲۲۲۰ - ۲۲۲۲).

(٢) تفسير الطبري (٥٣٤/١٥ - ٥٤٠).

(۳) تفسیر ابن کثیر (۵/۲۲۲۳).



بعدها: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلاً كَثِيراً﴾ [يس: ٦٢] أي: خلقاً كثيراً ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٦٢] أي: أين ذهبت عقولكم من مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وتوحيده وحده لا شريك له وعدولكم إلى اتباع الشيطان وسلكتم مسالكه<sup>(١)</sup>.

بل وأمر سبحانه بالاستقامة والقسط في جزئيات من العبادة تأكيداً على أهمية العدل فيها - وإن كانت الاستقامة مطلوبة في جميع جوانب الدين - كقوله تعالى في شأن الوزن: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥] أي: وقضى ربك أن أوفوا الكيل للناس إذا كلتم لهم حقوقهم ولا تبخسوه، وقضى أن زنوا بالقسطاس المستقيم أي: الميزان المستقيم وهو العدل الذي لا عوج فيه ولا دغل ولا خديعة.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: من ظلم الناس وبخسهم حقوقهم ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: عاقبة ومالاً ومردوداً عليكم لأن الله يرضى بذلك عنكم فيحسن لكم العاقبة والجزاء<sup>(٢)</sup>.

## ثانياً: في جانب العبد:

إن الأصل في استقامة العبد لا مجرد استقامة جوارحه الظاهرة على تعاليم الدين بل لب ذلك وحقيقته استقامة القلب على دين الله وشرعه فهو أمير الجوارح وقائدها وهي تبع له في ذلك كما ثبت في الحديث الصحيح: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢٩٥٣/٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥٩١/١٤ - ٥٩٣).

(٣) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه. انظر: صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (١٢٦/١) رقم (٥٢)، وصحيح مسلم كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٢١٩/٣، ١٢٢٠) ورقم (١٥٩٩).

ولا نَجاة للعبد ولا فلاح إلا باستقامة قلبه وسلامته كما قال تعالى:  
﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨،  
٨٩] أي: سالم من الدنس والشرك.

قال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن  
الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَنْ في القبور. وقال ابن عباس:  
حَيَّيْ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وقال مجاهد، والحسن، وغيرهما: يعني:  
من الشرك. وقال سعيد بن المسيب: هو القلب الصحيح، وهو قلب  
المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:  
١٠].<sup>(١)</sup>

فالمراد سلامته عن الاعتقادات والإرادات الفاسدة كما يقول شيخ  
الإسلام رحمته الله <sup>(٢)</sup>.

فمتى استقام القلبُ على معرفة الله، وعلى خشيته، وإجلاله، ومهابته،  
ومحبته، وإرادته، ورجائه، ودعائه، والتوكل عليه، والإعراض عما سواه،  
استقامت الجوارحُ كُلُّهَا على طاعته، فَإِنَّ الْقَلْبَ هو ملكُ الأعضاء، وهي  
جنوده، فإذا استقامَ الملك، استقامت جنوده ورعاياه، وكذلك فسّر قوله  
تعالى: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠] بإخلاص القصد لله وإرادته  
وحده لا شريك له.

وأعظم ما يُراعى استقامته بعد القلبِ مِنَ الجوارحِ اللسانُ، فإنه  
ترجمانُ القلبِ والمعبرُ عنه، ولهذا لما أمر النبي ﷺ بالاستقامة، وصَّاه بعدَ  
ذلك بحفظ لسانه <sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢٥٨٦/٦).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣٣٧/١٠).

(٣) جامع العلوم والحكم (٥١٢/١).





واستقامة القلب تحصل بأمرين:

الأول: أن تكون محبة الله عند العبد مقدمة على جميع المحاب فإذا تعارض حب الله وحب غيره سبق حب الله كل ما سواه وترتب على ذلك مقتضاه من تعظيم الله وأمره.

الثاني: تعظيم الأمر والنهي وهو ناشئ عن تعظيم الأمر الناهي وقد ذم الله ﷻ من لا يعظم أمره ونهيه فقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] أي: لا تخافون له عظمة. وتعظيم الأمر والنهي كما يقول شيخ الإسلام رحمه الله هو ألا يعارض بترخيص جافي ولا تشديد غالي ولا يحمل على علة توهن الانقياد له<sup>(١)</sup>.

وبحسب هذا التعظيم تكون استقامة القلب وكمال إيمان المرء وتصديقه وصحة عقيدته وبعده عن الشرك ومخالفة الأمر والنهي وتفاضل الأعمال عند الله تعالى يكون بحسب تفاضل ما في القلوب من استقامة على أمر الله وما فيها من إيمان وإخلاص ومحبة وتوابع ذلك. فالسير إلى الله تعالى حقيقة هو سير القلوب فإذا استقام القلب وصح عمله واعتقاده وصدق في ذلك فقد ينال العبد الأجر الكامل المترتب على فعل الطاعة ولو لم يعلمها لعارض من عجز أو مرض أو نحوه يشهد لذلك قوله تعالى في سورة براءة: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِدٌ مَّا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] فإنها نزلت في البكائين الذين لم تكن لهم رواحل يبلغون عليها الجهاد في سبيل الله يوم تبوك ولم يكن عند رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: الوابل الصيب ص (١٣)، ومدارج السالكين (٥١٧/٢)، ومراده بشيخ الإسلام هنا أبو إسماعيل الهروي صاحب منازل السائرين الذي شرحه ابن القيم في مدارج السالكين.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٦٢٤/١١ - ٦٢٧)، والواحدي في أسباب النزول ص (٢٩٦) وغيرهم.

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال - بعد أن قفل من تبوك راجعاً ودنا من المدينة -: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم فيه». قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر»، وفي لفظ لمسلم: «شركوكم في الأجر»<sup>(١)</sup>.

فانظر إلى من استقامت قلوبهم وصح عزمهم على فعل الطاعة كتب الله لهم أجر العاملين كاملاً لما علم الله صدق ذلك منهم مع أنهم لم يعملوا بسبب العجز الذي حال بينهم وبين ذلك. فنالوا أجر العاملين كاملاً بسبب استقامة قلوبهم؛ هذا في جانب ترك فعل المأمور. وكذلك الأمر في جانب فعل المحذور إذا اضطر إليه العبد أو أكره على فعله ما دام قلبه مستقيماً لا عوج فيه ولا ميل ولا انحراف فإنه لا يكتب عليه من الوزر شيء ألبته.

يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦] فإنها نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه حين عذبه المشركون حتى يسب النبي ﷺ ويمدح آلهتهم. وفي بعض الروايات حتى يكفر بالنبي ﷺ فوافقهم على ذلك مكرهاً فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: «كيف تجد قلبك؟»، قال: مطمئناً يا رسول الله. قال: «فإن عادوا فعد»<sup>(٢)</sup>.

فانظر كيف تجاوز الرب سبحانه وتعالى عما ظاهره الكفر مع استقامة القلب واطمئنانه بالإيمان لما كان قائل ذلك مكرهاً. ويقدر ما في القلوب من

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإجازة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر (١٥١٨/٣) رقم (١٩١١).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٣٧٤/١٤)، (٣٧٥)، وعبد الرزاق في تفسيره (٣٦٣/٢)، والواحدي في أسباب النزول ص (٣٢٦).



استقامة وإيمان يعظم العبد عند الله تعالى ولهذا كان أبو بكر رضي الله عنه أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ لما تحقق في قلبه من الاستقامة وكمال الإيمان مع أن في الأمة من هو أكثر عملاً وحجاً وصوماً وجهاداً وقراءةً منه، قال التابعي الجليل أبو بكر ابن عباس رضي الله عنه: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه <sup>(١)</sup>.

وإذا حاد القلب عن طريق الاستقامة واعوج ولم يستقم على شرع الله لا ينفعه العمل آنذاك مهما كثر وليعتبر بحال طائفتين حادثا عن العبادة في ذلك فخابتا وخسرتا:

الأولى: المنافقون الذين كانوا يصلون مع الرسول ﷺ ويجاهدون معه ويحجون معه ومع ذلك قال الله عنهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]. وما ذاك إلا لفساد قلوبهم وانحرافها وعدم استقامتها وخلوها من الإيمان.

الثانية: الخوارج الذين قال فيهم الرسول ﷺ: «يخرج في هذه الأمة قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حلقهم - أو حناجرهم - يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية» <sup>(٢)</sup>.

فلما خلت قلوبهم من الاستقامة والإيمان لم تنفعهم تلك الأعمال الظاهرة التي يحقر المؤمنون أعمالهم معها في ظاهرها لأنهم لم يعتنوا بأسسها وأصلها وهو استقامة القلب وصلاحه.



(١) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢٢٣/٦) و(٤٩٣/٨).

(٢) انظر: صحيح البخاري مع الفتح كتاب الزكاة - باب إثم من رأى بقراءة القرآن (٩٩/٩) رقم (٥٠٥٨)، وصحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب ذكر الخوارج وصفاتهم (٧٤٣/٢، ٧٤٤) رقم (١٤٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

## الفصل الرابع

### أسباب تحصيل الاستقامة

#### أولاً: الدعاء:

فللدعاء أثره البالغ في جلب المسرات ودفع المضرات فهو من أقوى الأسباب في ذلك وقد أمر الله تعالى به ووعد عليه الإجابة، فقال جل شأنه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] فمن فضل الله تعالى على عباده أن حثهم على الدعاء ووعدهم الإجابة وجعله دليلاً على الذل والخضوع لله ولهذا تواعد من تكبر عن دعائه وتوحيده بدخول جهنم وهو صاغر ذليل.

فالدعاء سلاح المؤمن وهو مأمور به في كل حين، خصوصاً ما يتعلق منه بالهداية والاستقامة ولذلك أمرنا الله به في أفضل العبادات بأن نقول في كل ركعة من ركعات صلاتنا فرضاً كانت أم نفلاً: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

وحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه أعظم من حاجته إلى الرزق والنصر بل لا نسبة بينهما فمن مات بانقطاع الرزق أو مات شهيداً في سبيل الله كان موته موثقاً له إلى سعادته الأبدية إن كان من أهل الهدى والاستقامة فالعبد مضطر إلى مقصود هذا الدعاء فلا نجاة من العذاب ولا وصول إلى السعادة إلا بهذه الهداية<sup>(١)</sup>.

(١) مجموع الفتاوى (٣٧/١٤ - ٤٠).



وما في الفاتحة من الثناء والدعاء وهو قول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] هو أفضل دعاء دعا به العبد ربه وهو أوجب دعاء دعا به العبد ربه، وأنفع دعاء دعا به العبد ربه، فإنه يجمع مصالح الدين والدنيا والآخرة، والعبد دائماً محتاج إليه لا يقوم غيره مقامه، فلو حصل له أجر تسعة أعشار القرآن - دع ثلثه - ولم يحصل له مقصود هذا الدعاء لم يقم مقامه، ولم يسد مسده<sup>(١)</sup>.

وقال شيخ الإسلام: ومعنى هذا الدعاء ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ طلب العلم بالحق والعمل به جمعاً<sup>(٢)</sup>.

وقال أيضاً: وهذا كما يقول بعضهم في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ فيقولون: المؤمن قد هدى إلى الصراط المستقيم، فأى فائدة في طلب الهدى؟! ثم يجيب بعضهم بأن المراد ثبتنا على الهدى كما تقول العرب للنائم: نم حتى آتيك، أو يقول بعضهم: ألزم قلوبنا الهدى، فحذف الملزوم، ويقول بعضهم: زدني هدى، وإنما يوردون هذا السؤال؛ لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذي يطلب العبد الهداية إليه، فإن المراد به العمل بما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه في جميع الأمور. والإنسان وإن كان أقر بأن محمداً رسول الله، وأن القرآن حق على سبيل الإجمال، فأكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره، وما أمر به، وما نهى عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفه، وما عرفه فكثير منه لم يعمل بعلمه، ولو قدر أنه بلغه كل أمر ونهي في القرآن والسنة، فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية، لا يمكن غير ذلك لا تذكر ما يخص

(١) مجموع الفتاوى (١٣١/١٧ - ١٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦٦/٧).

به كل عبد؛ ولهذا أمر الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم.

والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله، يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلاً، ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات، ويتناول إلهام العمل بعلمه، فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه، ولهذا قال الله لنبيه بعد صلح الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝﴾ [الفتح: ١، ٢]، وقال في حق موسى وهارون: ﴿وَأَيُّهَا الْكُتُبَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ [الصافات: ١١٧، ١١٨].

والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الأمور الخيرية والعلمية الاعتقادية والعملية، مع أنهم كلهم متفقون على أن محمداً حق، والقرآن حق، فلو حصل لكل منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا، ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه ولا يحتذون حذوه، فلو هدوا إلى الصراط المستقيم في تلك الأعمال؛ لفعلوا ما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه، والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة، مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائماً في أن يهديهم الصراط المستقيم. فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين.

قال سهل بن عبد الله التستري: ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار، وما حصل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل وهذا حقيقة قول من يقول: ثبتنا واهدنا لزوم الصراط. وقول من قال: زدنا هدى، يتناول ما تقدم، لكن هذا كله هدى منه في المستقبل إلى الصراط المستقيم، فإن العمل في المستقبل بالعلم لم يحصل بعد، ولا يكون مهتدياً حتى يعمل في المستقبل بالعلم، وقد لا يحصل العلم في المستقبل بل يزول عن القلب، وإن حصل فقد لا يحصل



العمل، فالناس كلهم مضطرون إلى هذا الدعاء؛ ولهذا فرضه الله عليهم في كل صلاة، فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه، وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من السعادة، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

قال ابن عطية: وهذا الدعاء إنما أمر به المؤمنون وعندهم المعتقدات وعند كل واحد بعض الأعمال فمعنى قوله: ﴿أَهْدِنَا﴾ فيما هو حاصل عندهم طلب الثبوت والدوام وفيما ليس بحاصل إما عن جهة الجهل به أو التقصير في المحافظة عليه طلب الإرشاد إليه وكل داع بهذا الدعاء إنما يريد الصراط بكماله في أقواله وأفعاله ومعتقداته فيحسن على هذا أن يدعو في الصراط على الكمال من عنده بعضه<sup>(٢)</sup>.

وليس هذا مقصوداً على جانب العلم الشرعي وإن كان هو المقصود الأسمى والغاية العظمى لكن الاستقامة في ذلك تشمل جميع جوانب العلوم حتى العلوم الدنيوية لترقى بالأمر وتجلب لها السعادة ومتى استقام العبد في ذلك فإنه يضيف الجديد المفيد خصوصاً المسلم لأن عنده من الحوافز والدوافع الإلهية ما يدفعه إلى التعلم ونفع البشرية؛ ألا وهو عظيم الأجر الذي يرجوه من الله في الآخرة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]، إضافة إلى ما وعده الله به من الفتح ومزيد العلم والمعرفة في الدنيا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وما أحوج البشرية اليوم إلى بشر منصفين يراعون جوانب الاستقامة في هذا كله - وإن لم يكونوا مسلمين - بدلاً من تلك التيارات المتضاربة المتصارعة في مقاييسها والتي تكيل بها القوى الدولية بمكيالين:

مكيال وافي للكفر وأهله، ومكيال بخس للإسلام وأهله ولكن هيهات

(١) مجموع الفتاوى (١٠٦/١٠ - ١٠٩).

(٢) المحرر الوجيز (٧٤/١).

لن يأتي ذلكم العدل والإنصاف بغير الإسلام والاستقامة على تعاليمه فاللهم أعز الإسلام وأهله واخذل الكفر وأهله.

ومن آيات الدعاء بالثبات على الاستقامة والهدي قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران: ٨). وهذا الدعاء من ثمار العلم إذ يصح أن يكون هذا الدعاء من تمام قول الراسخين في العلم الذين يقولون في المحكم والمتشابه: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧) كما حكى الله عنهم في الآية التي قبلها ثم توسلوا إلى ربهم بالثبات على الاستقامة ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلها كالذين في قلوبهم زيغ ويتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتها على صراطك المستقيم ودينك القويم ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: من قبلك، وتفضلاً منك لا عن سبب منا ولا عمل، وفي هذا ذل واستسلام واطراح بين يدي الرب وتبرؤ من الحول والقوة ﴿رَحْمَةً﴾ أي: تثبت بها قلوبنا وتجمع بها شملنا وتزيدنا بها إيماناً و يقيناً ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (١).

## ثانياً: الاعتصام بالله:

والاعتصام افتعال من العصمة وهي المنع والحفظ والتمسك بما يعصمك يقال: عصمه عصماً، أي: منعه ووقاه مما يحذر واعتصم فلان بالله إذا امتنع به (٢).

والاعتصام بالله هو التوكل عليه والامتناع والاحتماء به وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه ويعصمه ويدفع عنه فإن ثمرة الاعتصام بالله هو الدفع عن العبد والله يدافع عن الذين آمنوا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦٨٥/٢)، والمحزر الوجيز (٤٠٤/١ - ٤٠٥).

(٢) انظر: مادة (عصم) في لسان العرب، (٤٠٣/١٢)، والقاموس المحيط ص (١٤٦٩).





الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿الحج: ٣٨﴾ فيدفع الله عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضي إلى العطب ويحميه منه فيدفع عنه الشهوات والشبهات وكيد عدوه الظاهر والباطن وشر نفسه ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه فتفقد في حقه أسباب العطب فيندفع عنه موجباتها ومسبباتها، ويدفع عنه قدره بقدره، وإرادته بإرادته، ويعيذه به منه<sup>(١)</sup>.

فمن اعتصم بالله هداه إلى الصراط المستقيم ورزقه الاستقامة على الحق وأدخله في رحمته وجنته قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية والعدة في مباحدة الغواية والوسيلة إلى الرشاد وطريق السداد وحصول المراد<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدْ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٥] أي: جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل يرحمهم الله ويدخلهم جنته ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعة في درجاتهم ويهديهم طريقاً واضحاً قصداً قواماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف وهذه صفة المؤمن في الدنيا والآخرة ففي الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والأقوال والأفعال وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين؛ فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصمه من

(١) مدارج السالكين (٤٩٧/١).

(٢) تفسير ابن كثير (٧٤٣/٢).

(٣) تفسير ابن كثير (١٠٧٧/٣).

الضلالة والاعتصام به يعصمه من الهلكة فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، ودلالته على الطريق والسلامة من قطاع الطريق وآفاته تحصل بالعدة والقوة والسلاح.

فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلهم بها في طريقه.

ولهذا اختلفت عبارات السلف في معنى الاعتصام بحبل الله بعد إشاراتهم كلهم إلى هذا المعنى؛ فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله، وقال ابن مسعود: هو الجماعة، وقال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به وإن ما تكرهون من الجماعة والطاعة خير مما تحبون من الفرقة، وقال أكثر المفسرين: هو القرآن. فالاعتصام بحبل الله هو المحافظة على طاعته مراقباً لأمره، أي: القيام بالطاعة لأجل أن الله أمر بها وأحبها لا لمجرد العادة أو لعدة باعثة سوى امتثال الأمر. كما قال طلق بن حبيب في التقوى: «هي العمل بطاعة الله على نور من الله نرجو ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله» وهذا هو الإيمان والاحتساب المشار إليه في كلام النبي ﷺ كقوله: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»<sup>(١)</sup>.

والاعتصام بحبل الله يحمي من البدعة وآفات العمل<sup>(٢)</sup>.

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة. انظر: صحيح البخاري مع الفتح، كتاب فضل ليلة القدر، باب فضل ليلة القدر (٢٥٥/٤) رقم (٢٠١٤)، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٥٢٣/١ - ٥٢٦) ورقم (٧٦٠).

(٢) مدارج السالكين (٤٩٥/١ - ٤٩٧).



### ثالثاً: المجاهدة في السير إلى الله:

فإن من جاهد نفسه في الإقبال على الله، وتحرى الإخلاص واتبع هدي النبي ﷺ وفقه الله للاستقامة والهداية كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، أي: الذين هاجروا في سبيل الله وجاهدوا أعداءه وبذلوا جهودهم في اتباع مرضاته لنهدينهم الطرق الموصلة إلينا لأنهم محسنون، والله مع المحسنين بالعون والنصرة والهداية والثبات والاستقامة<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤] فمن صدق في مقصده إلى الله، وجاهد نفسه على ذلك، فإن الله يسدده ويوفقه للاستقامة على دينه وشرعه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧] أي: الذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها، فهداهم إليها، وثبتهم عليها، وزادهم فيها، ﴿وَأَتَاهُم تَقْوَاهُمْ﴾ أي: ألهمهم رشد<sup>(٢)</sup>.

وعلى قدر ما يجاهد المرء نفسه في الإقبال على الله ولزوم الاستقامة والسير على الجادة متبعاً هدي النبي ﷺ وسلف الأمة مخلصاً في ذلك لله لا يلتفت إلى غيره؛ على قدر ما يتعجل جني الثمرة والتلذذ بالعبادة في هذه الدنيا فتَهون عليه كل عقبة في سبيل الله.

والاستقامة في هذا الجانب ترادف الإيمان والتقوى فليس هناك غاية من العبادة إذا انتهى إليه العبد يقال له: دونك لا مزيد على ذلك بل الأمر كما قال الله تعالى - لأفضل من تعبد له ﷺ -: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وعلى قدر مجاهدة العبد نفسه في الاستقامة والإقبال على الله يقبل الله

(١) انظر: تفسير السعدي (٧٩/٤ - ٨٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣٢١٩/٧).

عليه ويوفقه ويسدده ويشرح صدره وينير قلبه ويفتح عليه كما في الحديث القدسي المتفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»<sup>(١)</sup>.



(١) انظر: صحيح البخاري مع الفتح - كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: ﴿وَيَعِزُّكُمْ﴾ [آل عمران: ٣٠] [٣٨٤/١٣] رقم (٧٤٠٥)، وصحيح مسلم - كتاب التوبة - باب في الحض على التوبة والفرح بها (٢١٠٢/٤) رقم (١).



## الفصل الخامس

### درجات الاستقامة

قال ابن القيم رحمته الله: وهي على ثلاث درجات<sup>(١)</sup>:

#### الدرجة الأولى:

الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد لا عادياً رسم العلم ولا متجاوزاً حد الإخلاص ولا مخالفاً نهج السنة هذه درجة تتضمن ستة أمور: عملاً، واجتهاداً فيه، وهو بذل المجهود واقتصاداً، وهو السلوك بين طرفي الإفراط وهو الجور على النفوس والتفريط بالإضاعة، ووقوفاً مع ما يرسمه العلم، لا وقوفاً مع داعي الحال، وإفراد المعبود بالإرادة، وهو الإخلاص، ووقوع الأعمال على الأمر، وهو متابعة السنة؛ فهذه الأمور الستة تتم لأهل هذه الدرجة استقامتهم وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة: إما خروجاً كلياً وإما خروجاً جزئياً والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيراً. وهما: الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسنة، فإن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره فإن رأى فيه داعية للبدعة وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنة أخرجه عن الاعتصام بها، وإن رأى فيه حرصاً على السنة وشدة طلب لها لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها، أمره بالاجتهاد والجور على النفس ومجاورة حد الاقتصاد فيها قائلاً له: إن هذا خير وطاعة والزيادة والاجتهاد فيها أكمل فلا تفتقر مع أهل الفتور ولا تنم مع أهل النوم فلا يزال يحثه ويحرضه حتى يخرج من الاقتصاد فيها فيخرج عن حدها كما أن الأول خارج عن هذا الحد فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر.

(١) انظر هذه الدرجات في: مدارج السالكين (١١٠/٢، ١١١) بتصرف.



وهذا حال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم وقراءتهم مع قراءتهم وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة لكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف. اهـ.

ودليل ما ذكره ابن القيم رحمته الله في هذه الدرجة آيات كثيرة من القرآن الكريم، فكل آية فيها سؤال الهداية إلى الصراط المستقيم تتضمن هذا، إذ لا تكون الاستقامة إلا عن علم ومعرفة بالله وما يجب له من القيام بأمره والانزجار عن نهيه ووصفه بما هو له أهل من أوصاف الكمال وتنزيهه عن كل عيب ونقص مع الإخلاص في ذلك واتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦٦﴾

[الفاتحة: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝١٧٦﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً ۝٦٦ وَإِذَا لَا تَأْتِيَهُمْ مِنَ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٦٨﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨].

### الدرجة الثانية:

استقامة الأحوال: وهي شهود حقيقة تفرد الرب بالفعل وأن ما سواه محل جريان أحكامه وأفعاله فهو في مشهد الأمر والنهي والثواب والعقاب والموالاة والمعاداة والحب والبغض يتحرى مرضاة الله تعالى ويدور معها حيث دارت ويجعل الحامل له على ترك المحذورات وفعل المأمورات لا مجرد علمه بفساد هذه وصلاح هذه بل طاعة الله والتقرب إليه وابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، وهو في ذلك كله دائم اليقظة لا يطفئ نورها بظلمة الغفلة بل يستديم يقظته ويرى أن ذلك تحقق له بحفظ الله وتوفيقه لا أنه



حصل بتحفظه واحترازه هو. فهذه ثلاثة أمور: يقظة، واستدامة لها، وشهود أن ذلك بالحق سبحانه لا بالمرء نفسه، فليس سبب بقاءه في نور اليقظة بحفظه بل بحفظ الله له وأن الاستقامة في هذه الدرجة لا تحصل بمجرد كسبه وإنما هي موهبة من الله وإن كان الأمر يحتاج إلى مجاهدة النفس وترويضها على سلوك طريق الاستقامة ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

ويشهد لما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي هذه الدرجة آيات من القرآن؛ مثل قوله الحق تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٦١] قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [١٦٢] لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ [١٦٣] [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّيَ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبا: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [٢٧] لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ [٢٨] وَمَا شَاءَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [٢٩] [التكوير: ٢٧ - ٢٩].

### الدرجة الثالثة:

الاستقامة بترك رؤية الاستقامة، وبشهوده أن الله هو المقيم له والمقوم، وأن استقامته وقيامه بالله لا بنفسه ولا بطلبه، وهذا القدر من موجبات شهود معنى اسمه القيوم وهو الذي قام بنفسه فلم يحتاج إلى أحد وقام كل شيء به فكل ما سواه محتاج إليه. اهـ.

ويشهد لهذه الدرجة قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [١] لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعَمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا [٢] [الفتح: ١، ٢].

وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا

الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا  
اختلفوا فيه مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُودُوا فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ يَشَاءِ اللَّهُ  
يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ [الأنعام: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ  
مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ [النور: ٤٦].







## الفصل (الساوس)

### ثمار الاستقامة

من وفقه الرب سبحانه وتعالى لسلوك طريق الاستقامة فإنه يجني من الثمار الحسية والمعنوية الشيء العظيم ومن ذلك:

- ١ - حسن الخاتمة.
- ٢ - تنزل الملائكة عليه عند الموت مبشرة، ومطمئنة، ومثبتة.
- ٣ - حفظ الله له فيما وراءه من ولد وأهل ومال.
- ٤ - تطمين الملائكة له مما هو مقدم عليه.
- ٥ - تبشير الملائكة له بالجنة وما يدعو فيها من نعيم.
- ٦ - ولاية الملائكة له في الحياة وبعد الممات المتفرعة عن ولاية الله.
- ٧ - أنه في ضيافة الله - كفى بها من خاتمة - فالكرم على قدر الكريم، فكيف وقد وصف نفسه بأنه غفور رحيم يتجاوز عن السيئات ويضاعف الحسنات.

كل هذه الثمار يزفها لك أيها المؤمن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾  
[الأحقاف: ١٣، ١٤].

٨ - التوسعة في الرزق وبركات الأرض، والأمنة من العذاب كما ينبيء به قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن: ١٦، ١٧].

٩ - أنه يحشر يوم القيامة على هيئة تشعر بإكرامه وعلو منزلته وجميل صنيعه - والجزاء من جنس العمل - فكما استقام وسار في الدنيا على مرضاة الله فإنه يسير يوم القيامة على هيئة سوية مستقيمة مرفوع الرأس معتدل القامة مهتدياً في سيره سالكاً طريقاً سويًا لا عوج فيه كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَمَنْ يَمْشِي مُكَبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبًا على وجهه أي: يمشي منحنيًا لا مستويًا ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب بل تائه حائر ضال. أهذا أهدى ﴿أَمَنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾؟ أي: منتصب القامة ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: على طريق واضح بيّن وهو في نفسه مستقيم وطريقه مستقيمة. هذا مثلهم في الدنيا وكذلك يكونون في الآخرة فالمؤمن يحشر يمشي سويًا على صراط مستقيم مفض به إلى الجنة الفحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الصفات: ٢٢] (١).

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وَجْهِهِمْ عَمِيًَّا وَكِكًا وُصْمًا مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: ٩٧]. وقال تعالى:

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٥٨١).



﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤].

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا نبي الله، يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»، قال قتادة: بلى وعزة ربنا<sup>(١)</sup>.

١٠ - أنها من علامات الإيمان، فلا تتأتى الاستقامة إلا بالإيمان والتقوى كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

١١ - أنها من علامات الهداية قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦]، فمن رزق الاستقامة فهي أمانة على هدايته.



(١) انظر: صحيح البخاري مع الفتح، كتاب التفسير، سورة الفرقان، (٤٩٢/٨) رقم (٤٧٦٠)، وصحيح مسلم، صفة القيامة والجنة والنار، باب يحشر الكافر على وجهه (٢١٦١/٤) رقم (٢٨٠٦).

